

الفصل السادس

رو-و الرومانى

١٧٥٦ - ١٧٦٢

١ - فى « الايرميتاج » : ١٧٥٦ - ١٧٥٧

كان روسو قد انتقل إلى كوخ مدام دينيه فى ٩ أبريل ١٧٥٦ مصطحبا زوجته غير الشرعية تريز لافاسير وأمها . وسعد بالعيش هناك حيناً ، إذ أحب غناء الطيور وزقزقتها ، وحفيف الأشجار وعبيرها ، وهدوء الجولات المنفردة فى الغابات . وكان فى جولاته يحمل قلمًا وكراسة ليقتنص الأفكار وهى تمرق منه .

ولكنه لم يخلق للراحة والسلام . ذلك أن حساسيته ضاعفت كل عناء ، وخلقت مزيداً من المتاعب . لقد كانت تريز زوجة وفية ، ولكنها لا تستطيع أن تكون رفيقا لذهنه ، كتب فى إميل يقول « ينبغى ألا يقترن الرجل الذى يفكر بزوجة لا تستطيع مشاطرته أفكاره .^(١) ولم يكن بتريز المسكينة حاجة تذكر للأفكار ، ولا كبير حاجة للكلمات المكتوبة . لقد بذلت له جسدها وروحها ، واحتملت غضباته ، وأغلب الظن أنها ردت عليها بمثلها ، وسمحت له بأن يقرب من حافة الحيانة مع مدام دودتو ، وكانت هى على قدر ما نعلم وفية فى تواضع باستثناء حادث لا سند لنا فيه إلا رواية بوزويل . ولكن أنى لهذه المرأة الساذجة أن تستجيب لذلك الاتساع والتنوع الجامح فى عقل قدر له أن يزلزل نصف القارة ؟ استمع إلى تفسير روسو :

« ماذا يظن القارىء إذا قلت له ... إننى منذ اللحظة الأولى التى وقع عليها بصرى حتى اللحظة التى أكتب الآن فيها لم أشعر قط بأقل حب لها ، ولم أشته قط أن أملكها ... وأن الحاجات البدنية التى أشبعت بشخصها كانت بالنسبة لى

حاجات الجنس فقط ، دون أن تبيث إطلاقا من شخصيتها ؟ ... لقد كانت أولى حاجاتي ، وأعظمها ، وأقواها ، وأشهرها ، كلها في قلبي : الحاجة إلى رباط (روحي) حميم ، حميم ما أمكن . وكانت هذه الحاجة الفريدة بحيث لا يشبعها أوثق الاتصال البدني ، ولم يكن بد لها من وجود روحيين .^(٢)

ولعل تريز كانت ترد على هذه الشكاوى بضدها ، لأن روسو كان قد كف الآن عن القيام بوظائفه الزوجية . ففي ١٧٥٤ قرر لطبيب جنيني : « لقد تعرضت طويلا لأقصى الآلام ، لعلة حصر البول التي لاشفاء لي منها ، والتي نجمت عن احتقان في مجرى البول يسد القناة سدا يستحيل معه أن يدخل فيها حتى قسطرات الدكتور داران المشهور .^(٣) وزعم أنه أقطع عن كل اتصال جنسي مع تريز بعد ١٧٥٥^(٤) ثم أضاف « حتى ذلك التاريخ كنت صالحا ، ومن تلك اللحظة أصبحت طاهرا ، أو على الأقل متيا بالطهارة .

وجعل وجود حماته معهما هذا المثلث حادا إلى درجة مؤلمة . وقد عالها هي وزوجته ما استطاع من دخله الذي جاءه من نسخ الموسيقى ومن بيع كتبه . غير أن مدام لافاسير كان لها بنات أخريات يحتجن إلى مهور ويعشن في ضنك مقيم . وجمع جريم وديدرو ودولباخ فيما بينهم للمرأتين معاشا سنويا قدره أربعمائة جنيه ، وأخذوا عليهما العهد بكتمان الأمر على روسو مخافة جرح كبريائه . واختصت الأم نفسها وبناتها بمعظم المال (على رواية روسو)^(٥) ، واستدان باسم تريز ، ودفعت تريز الديون ، وأخفت أمر المعاش طويلا ، وأخيرا كشف روسو سره ، فاستشاط غضبا على أصدقائه لاذلاله على هذا النحو . وقد زادوه غضبا بالإلحاح عليه في أن ينتقل من الإيرمتاج قبل حلول الشتاء ، فالكوخ (في رأيهم) لم يعد للجو البارد . وحتى لو احتملت زوجته برد الشتاء فيه فهل في طاقة الأم احتمالاه ؟ وكان ديدرو قد كتب في تمثيلية « الابن الطبيعي »^(٦) : « إن الرجل الصالح يحيا في مجتمع ؛ ولا يعيش وحيدا غير الطالح » . ونخيل لروسو أنه المقصود بهذا القول ، وبدأ الآن نزاع طويل لم تكن المصالحات التي تخللته إلا مهادئات . وشعر روسو أن جريم وديدرو يحاولان إغرائه بالعودة إلى مدينة فاسدة لأنهما يحسدانه على السلام الذي وجدته بين

الغابات . وقد كشف في خطاب أرسله إلى صاحبة الفضل عليه ، منام دينيه ،
(وكانت في باريس) عن خلقه بصراحة ونفاذ بصر . قال :

« أريد أن يكون أصدقائي أصدقاء لا سادة علي ؛ أريدهم أن ينصحوني
لا أن يحاولوا التسلط علي ؛ وأن يكون لهم كل المطالب علي قلبي دون مطلب
واحد يقيد حريتي . أنى لأراها غريبة تلك للطريقة التي يتدخل بها الناس باسم
الصداقة في شئوني دون أن يطلعوني على شئونهم ... وحرصهم الشديد على أن
يؤدوا لي ألف خدمة يرهقني ، ففيه لسة من الاستعلاء تضنني ؛ ثم إن كل
إنسان في وسعه أن يفعل مثل ما يفعلون ...

« وإني لتوحدى وانعزالي على الناس أشد حساسية من غيري . قلو فرضنا
أننى تشاجرت مع إنسان يعيش وسط الزحام ، فإنه يفكر في الأمر لحظة ثم
تنسيه إياه عشرات الشواغل بقية النهار . أما أنا فلا يصرف أفكاري عنه شيء
ولا أفتأ أقلبه في ذهني طوال الليل وأنا مؤرق ، وأفكر فيه وأنا أتمشى وحدي
من شروق الشمس إلى غروبها ، وقلبي لا يهدأ لحظة واحدة ، واساءة من
صديق كفيله بأن تجعلني أعاني في يوم واحد سنوات من الحزن . وإن لي أنا
العليل حقا في التسامح الواجب من إخوتي البشر نحو هفوات رجل مريض
وغضباته ... وأنا فقير ، وفقري ينحول لي بعض الرعاية (أو كذلك يخيل لي) .

« لا يدهشك إذن إن أنا أبغضت باريس أكثر فأكثر . ليس لي شيء
أنشده من باريس سوى رسائلك . ولن يراني أحد هناك ثانية أبدا . وإذا شئت
أن تنبئني بآرائك حول هذا الموضوع ، وبكل ما تبغين من قوة وعنف ،
فلك الحق في ذلك . فستلقى مني قيولا حسنا ، وستكون - عديمة الجدوى .^(٧)
وقد أجابته بما يكفي من العنف فقالت « أوه ، دع هذه الشكاوى التافهة
لمن نحات قلوبهم ورؤسهم .^(٨) ولكنها استفسرت مرارا عن صحته وراحته ،
واشترت له حاجياته ، وأرسلت له الهدايا الصغيرة .

« ذات يوم والحرارة بلغت من التجمد درجة قصوى ، وجدت وأنا افتح
طرذا به عدة أشياء طلبت إليها أن تبتاعها لي جرنلة داخلية من الفانللا الإنجليزية

قالت إنها كانت تلبسها ، ورغبت إلى في أن البسها صدرية داخلية ، ورأيت في هذه الرعاية البالغة الود حنانا شديدا - وكأنها تعرت لتكسوئي - حتى رحمت في انفعالي أقبل الخطاب والجونلة جميعا غير مرة وأنا أزرف الدمع . وخالتني ترميز قد جننت . (٩)

وخلال عامه الأول في الارميتاج صنف « قاموس الموسيقى » وتلخص بلغته المجلدات التي ألفها الأب دسان - بدير عن الحرب ، والسلام ، والتعليم ، والإصلاح السياسي . وفي صيف ١٧٥٦ تلقى من المؤلف نسخة من قصيدة فولتير في الزلزال الذي أهلك خمسة عشر ألف شخص ، وبخروج خمسة عشر ألف آخرين في لشبونة في عيد جميع القديسين أول نوفمبر ١٧٥٥ ، وقد تساءل فولتير كما تساءل نصف العالم لم اختارت العناية ، المفترض فيها أنها خيرة ، لهذه المذبحة العمياء عاصمة قطر كله كاثوليكي ، وساعة - ٩،٤٠ صباحا - كل الاتقياء يصلون فيها في الكنيسة . وفي نعمة من التشاؤم المطلق رسم فولتير صورة للحياة والطبيعة محايدتين حيادا قاسيا بين الشر والخير . وفي الفقرة التالية من الاعترافات نقرأ رد فعل روسو لهذه القصيدة القوية :

« حين ادهشني أن أرى هذا المسكين ، الغارق (إن جاز القول) في أسباب الثراء والتشريف ، يشكو بمرارة أرزاء هذه الحياة ، ويجد كل شيء خطأ ، فكرت في مشروع جنوني هو أن أجبره على تحويل اهتمامه إلى نفسه ، وعلى إثبات أن كل شيء صواب . إن فولتير وهو يبدو مؤمنا بالله لم يؤمن قط في الواقع بشيء غير الشيطان ، لأن إلهه المزعوم كائن خبيث لا يلتذ إلا بالشر ، كما يقول . وسخف هذه القصيدة الصارخ يثر أشد التقزز من رجل ينعم براء فاحش ، رجل يحاول من حزن السعادة أن يشيع اليأس في قلوب إخوته البشر بما يصور من صورة رهيبة قاسية لكل الكوارث التي أعنى منها ، أما أنا الذي يحق لي أكثر منه أن أعدد وأزن كل شرور الحياة البشرية ، فقد فحصتها في غير تحيز ، وأثبت له أنه ما من شر من جميع الشرور الممكنة يجب أن ننسبه للعناية ، وألا نرده بالأحرى إلى إساءة استعمال الإنسان لقدراته لا إلى الطبيعة » (١٠) .

وعليه ففي ١٨ أغسطس ١٧٥٦ أرسل روسو إلى فولتير « رسالة في العناية الإلهية من خمس وعشرين صفحة ، بدأها باقرار لطيف بفضل فولتير . قال :

« جاءتني قصائدك الأخيرة يا سيدي في عزلي ، ومع أن جميع أصدقائي يعرفون محبتي لكتاباتك ، فليست أدري من كان ممكنا أن يرسل لي هذا الكتاب سواك . فقد وجدت المتعة والفائدة جميعا ، وتبينت فيه يد الأستاذ ... ولزام علي أن أشكرك على المحلد وعلى صنيعك . » (١١)

ثم ناشد فولتير ألا يلوم العناية الإلهية على مصائب البشر . فعظم الشرور راجع لحماقتنا ، أو خطيئتنا ، أو إجرامنا :

« لاحظ أن الطبيعة لم تحشد عشرين ألف بيت من ستة طوابق أو سبعة ، وأنه لو كان سكان تلك المدينة الكبرى موزعين توزيعا أكثر توازنا في مساكن أقل تكاثفا ، لكانت الخسارة أقل كثيرا ، أو ربما انعدمت ، ولكان كل أهلها قد هربوا عند أول هزة ، ولرأيناهم في الغد على بعد عشرين فرسحا ، مرجحين كأن شيئا لم يصهم . » (١٢)

وكان فولتير قد كتب أن قلة من الناس من يودون أن يولدوا من جديد في نفس الظروف ؛ فرد روسو بأن هذا لا يصدق إلا على الأثرياء الذين أتخمو بالذات ، وملوا الحياة ، وأعوزهم الإيمان ؛ أو على الأدباء القاعدين ، غير الأصحاء ، الغارقين في تأملاتهم ، الساخطين ؛ ولكنه لا يصدق على بسطاء الناس كالطبقة الوسطى الفرنسية أو القرويين السويسريين . والذي يجعل من الحياة معضلة لنا هو إساءة استعمالها . (١٣) ثم إن شر الجزء قد يكون خير الكل ؛ فموت الفرد يتيح الحياة المتجددة للنوع . والعناية الإلهية عامة لا خاصة ؛ فهي تسهر على الكل ، ولكنها تترك أحداثا نوعية للأسباب الثانوية والقوانين الطبيعية . (١٤) وقد يكون الموت المبكر نعمة كذلك الذي أصاب أطفال لشبونة ، وهو على أية حال غير ذى بال ما دام هناك إله ، لأنه تعالى سيكافئ الجميع على ما أصابهم من معاناة لا يستحقونها . (١٥) ومسألة وجود الله تجاوز

الحل بالعقل . ولنا أن نختار بين الإيمان والكفر ، فلم نرفض إيماننا ملهما معزيا ؛
أما عن نفسى « فقد عانيت فى هذه الحياة كثيراً ، لهذا يملؤنى الرجاء فى حياة
أخرى . وكل دقائق الميتافيزيقا لن تشككنى لحظة فى وجود عناية خيرة وفى
خلود النفس . أنى أحس هذا ، وأومن به ، وأتمناه ... وسأدافع عن هذه
المعتقدات إلى آخر نسمة من حياتى . »^(١٦)

واختتم روسو خطابه ختاماً لطيفاً ، فقال إنه متفق مع فولتير على
التسامح الدينى ، وأكد له « إننى أؤثر أن أكون مسيحياً على طريقتك لا على
طريقة الصوربون . »^(١٧) . ورجا فولتير أن ينظم بكل ما فى شعره من قوة
وفتنة « كتاب تعليم مسيحى للمواطن » يتضمن قاموساً أخلاقياً يهذى الناس فى
فوضى العصر . وكتب فولتير إقراراً مهذباً بوصول رسالة روسو ، ودعاه
للزول ضيفاً عليه فى الدليس^(١٨) ، ولم يبذل محاولة منظمة لتنفيذ حجج
روسو ، ولكنه رد عليها بطريق غير مباشر بروايته « كانديد » (١٧٥٩) .

٢ - العاشق

حفل شتاء ١٧٥٦ - ١٧٥٧ بالأحداث لروسو . فى فترة ما خلال تلك
الشهور بدأ يكتب أشهر رواية فى القرن الثامن عشر « جولى ، أو هلوىز الجديدة »
وقد تصورها أول الأمر دراسة فى الصداقة والحب . فابنتنا العم جولى وكثير
تجبان سان - برو ، ولكنه حين يغوى جولى تظل كثير الصديقة الوفية لكليهما .
فلما أحججه أن يكون الكتاب مجرد رواية غرامية ، عمد إلى رفع القصة إلى
مقام الفلسفة بتحويل جولى إلى التدين ، والعيش فى ولاء مثالى لزوجها فولمار
وهو سيد شكاك استسلم لتعاليم فولتير وديدرو . يقول روسو فى اعترافاته :

« كانت العاصفة التى أطلقتها الموسوعة .. فى ذلك الحين على أشدها .
فلم يلبث الفريقان ، اللذان بلغ سخطهما بعضهما على بعض نهايته ، أن أصبحا
أشبه بذئاب غاضبة ... لا مسيحين وفلاسفة يرغب كل منهما فى إثارة الآخر
وإقناعه وهداية إخوانهم إلى طريق الحق . وكنت قد جهرت بالحقائق الصارمة
للفريقين لأننى بطبعى عدو لكل أنواع التخريب ، ولكنهم لم يستمعوا إلى ... »

ففكرت في طريقة أخرى ، بدت لي في بساطتي جديدة بالإعجاب ، وهي التخفيف من كراهتهما المتبادلة بأن أحطم تعصبهما ، وأظهر لكل فريق ما للآخر من فضائل وحسنات تستحق تقدير الجميع واحترامهم . وأحرزت الفكرة ... للنجاح المرتقب ، فقد قرهت ووحدت الحزبين المتنافسين على هدف واحد هو سحق الكاتب ... ولما رضيت .. عن خطتي ، عدت إلى الموقعين تفصيلا ... فأسفر هذا عن الجزئين الأول والثاني من « هلويز » .^(١٩)

وكان يقرأ على تريز ومدام ليفاسير كل مساء صفحات من القصة عند المدفأة . وشجعتة الدموع التي كانت تدرفها تريز ، فدفع بالخطوطة إلى مدام دينيه حين عادت إلى قصرها الرئبي ، لاشتريت ، على ميل من الإرميتاج . وفي مذكراتها استعادة للحدث : « حين وصلنا هنا ... وجدنا روسو في إنتظارنا . وكان هادئا رائق المزاج للغاية . وأحضر لي رواية (جانبا منها) قد بدأها ... وقد قفل إلى الإرميتاج أمس ليستأنف هذا العمل ، الذي يزعم أنه قوام سعادة حياته . »^(٢٠) وبعد قليل كتبت إلى جرم :

« بعد العشاء قرأنا مخطوطة روسو . ولست أدري هل أنا متحيزة ضدها ، ولكني غير راضية عنها ، إنها مكتوبة بأسلوب في غاية الروعة ، ولكنها مسرفة في التفصيل ، وتبدو غير واقعية ومفتقرة إلى الحرارة . ولا تقول شخصيا كلمة واحدة مما ينبغي أن تقوله ، فالمؤلف هو الذي يتكلم دائما . ولا أدري كيف أخرج من هذا المأزق ، فلست أحب أن أخدع روسو ، ولا أستطيع أن أستقر على إدخال الحزن على قلبه . »^(٢١)

على أن روسو ، على نحو ما ، بث الحرارة في جولي خلال الشتاء ، أكان ذلك لأن قصة حب حية دخلت حياته ؟ ذلك أنه في ٣٠ يناير ١٧٥٧ زارته سيدة كان قد لقها في باريس باعتبارها أخت زوج مدام دينيه . وكانت هذه السيدة ، واسمها اليزابث - صوفى ديبلجارد ، قد تزوجت الكونت دودتو ، ثم تركته ، وأصبحت الآن خليعة عدة سنوات للمركز دسان - لامير ، الذي كان يوما ما مزاحما لفولتر على مدام دناتليه . وكان زوجها وعشيقتها كلاهما

قد انطلق إلى ساحة القتال . وفي صيف ١٧٥٦ كانت الكونتيسة قد استأجرت قصر أوبون الريني ، على نحو ميلين ونصف من الإيرميتاج . وكتب لها سان - لامبير أن روسو على رحلة جواد قصيرة منها ، واقترح عليها أن تسرى عن وحدتها بزيارة الكاتب الشهير الذي أوقف الحضارة كلها موقف الدفاع عن نفسها . فذهبت في مركبة ، فلما انغرزت في الوحل واصلت الرحلة سيرا ، فوصلت وحداتها وثوبها ملطخان . « وجعلت المكان يدوى بضحكها الذي شاركها فيه من كل قلبي » (٢٢) . وأعطتها تريمز تغييرة ملابس . ومكثت المركيزة لتتناول « وجبة ريفية خفيفة » وكانت في السابعة والعشرين ، وروسو في الخامسة والأربعين . ولم تكن باهرة الجمال سواء في طلعتها أو قوامها ، ولكن رقتها ، ردمائة طبعها ، وروحها المرحة أثارت حياته المظلمة . وفي العصر التالي أرسلت إليه رسالة لطيفة ، مخاطبة إياه باللقب الذي اتخذه بعد أن استوطن جنيف ثانية :

« أيها المواطن العزيز ، أعيد إليك الثياب التي تفضلت بأعزتي إياها . وقد وجدت عند رجوعي طريقا أفضل كثيرا ، ويجب أن أخبرك بمبلغ سروري بهذا ، لأنه ييسر لي العودة إلى زيارتك . ويؤسفني أنني لم أمكث إلا قليلا ... وسيكون أسنى أقل إذا كنت أكثر حرية ، واثقة دائما من أنني لا أزعجك . وداعا يا مواطني العزيز ، وأرجوك أن تشكر للآنسة ليفاسر كل ما أبدته نحوي من عطف . » (٢٣)

وبعد أيام عاد سان - لامبير من الجبهة . وفي أبريل استدعى من جديد للخدمة العسكرية ، وما لبثت الكونتيسة المرحة أن خطرت إلى الإيرميتاج على صهرة جوادها مرتدية ثياب الرجال . وصددم زيارتها روسو ، ولكنه ما لبث أن أحس بأنه يحتوى امرأة فاتنة . فانطلق مع ضيفته سيرا في الغابات تاركا تريمز لواجباتها المنزلية وأخبرته مدام دودتو عن شدة محبتها لسان لامبير ، وفي مايو رد زيارتها ، فذهب إلى أوبون في الوقت الذي تكون فيه « وحيدة تماما » كما قالت له . يقول « كنت أحيانا في رحلاتي المتكررة لأوبون أنام هناك ...

وكنت أراها كل يوم تقريبا طوال ثلاثة أشهر . ورأيت شخصية جولى متمثلة في مدام دودتو ، ثم لم أعد أرى غير مدام دودتو (في جولى) ، ولكن بكل أسباب الكمال التي جملت بها معبودة قلبي . «^(٢٤)

وأسلم نفسه زمنا لهذا الهذيان المحموم حتى لقد كف عن كتابة قصته ، وراح بدلا من هذا يكتب الخطابات الغرامية التي حرص على أن تعثر عليها في كوى أشجار أوبون . فقال لها أنه يحب ، ولم يقل من محبوبته ؛ ولكنها عرفت بالطبع . فوبخته ، وأكدت له أنها ملك سان — لامبير جسدا وروحا ، ولكنها سمحت له بمواصلة زيارته وتودده الحار ؛ والمرأة على أي حال تحيا حياة واحدة فقط حين تحب ، وحياة مضاعفة حين يحبها إثنان . « لم تنكر على شيئا يمكن أن تمنحه أرق الصداقات ، ولكنها لم تمنحني شيئا يجعلها خائنة . » وهو يروى أبناء ما كانا يخوضان فيه من « أحاديث مستفيضة متكررة ... خلال الشهور الأربعة التي انفقاها في صلة حميدة لا تكاد تضارعها صلة بين صديقين من الجنسين يحصران نفسيهما داخل الحدود التي لم تتجاوزها قط . »^(٢٥) وفي روايته لهذه العلاقة نجد الحركة الرومانسية على أشدها : فلا شيء في قصته يمكن أن يضارع هذه النشوات :

« لقد سكرنا كلانا بنحمر الحب — حبها لحبيبها ، وحبى لها ؛ وامتزجت تهادتنا ودموعنا ... ولم تنس نفسها قط لحظة واحدة في حميا هذا السكر اللذيذ ، وأؤكد تأكيدا قاطعا إنني أن كنت مرة ، وأنا منساق بحواسي ، قد حاولت حملها على الحياة ، فإنه لم يكن لي رغبة حقيقية في النجاح .. ذلك أن واجب نكران الذات تسامى بعقلي ... لقد كان من الممكن أن أقارف الجريمة ، وقد قورفت مائة مرة في قلبي ؛ ولكن أن الوث شرف حبيبتي صوفى ! أواه ، أممك هذا ؟ كلا ! لقد قلت لها مائة مرة إنه محال ... فإن حبي لها أعظم من أن يغريني بتملكها ... تلك كانت اللذة الوحيدة لرجل أوتى مزاجا من أكثر الأمزجة تأججا ، ولكنه ربما كان في الوقت ذاته من أجبن من أنجبتهم الطبيعة من البشر . »^(٢٦)

ولاحظت مدام ديينيه أن « دها » لم يعد يزورها الآن إلا لماما ، ومرعان

ما علمت بنياً رحلاته لأخت زوجها . فألمها النبأ . وكتبت إلى جريم في يونيو تقول « من القسوة على أى حال أن يهرب منك فيلسوف في أقل اللحظات توقعا لهروبه . »^(٢٧) وذات يوم في أوبون وجد روسو « صوفى » تبكى . ذلك أن سان - لامبير نى إليه خبر عيها هذا ، وقد أبلغ بالخبر (كما قالت لجان - جاك) « بطريقة سيئة . إنه ينصفنى ، ولكنه مغيظ ... وأخشى ما أخشاه أن تكلفنى حماقاتك الراحة والهدوء بقية أيامى »^(٢٨) . واتفقا على أن الذى باح بالسر لسان - لامبير لابد هو مدام دينيه ، لأننا « كنا نعلم أنها تراسله . » أو لعلها باحت به لجريم ، الذى كان يلقى سان - لامبير بين الحين والحين في وستفاليا . وقد حاولت مدام دينيه - في رواية روسو - أن تحصل من تريز على خطاباتة التى تلقاها من مدام دودتو ، واتهم مضيافته بخيانتة في خطاب عنيف :

« هناك عاشقان (صوفى وسان - لامبير) عزيزان على ، وهما وثيقا الارتباط جديران بحب الواحد لصاحبه ... وأحسب أن محاولات بذلت للتفريق بينهما ، وأنى استعملت لبث الغيرة في صدر أحدهما . ولم يكن الاختيار سديدا ، ولكنه بدا محققا لأغراض الحقد ؛ وأنت التى أشتهبه في أنها مذنبه بهذا الحقد .. وهكذا كان يمكن أن يلصق بالمرأة التى أكن لها أعظم تقدير ... عار قسمة قلبها وشخصها بين حبيبين ، ويلصق بى أنا عار كوفى أحد هذين التعيسين . ولو علمت أنك فكرت في هذا إطلاقا ولو لحظة واحدة في حياتك ، سواء عنها أو عنى ، لأبغضتك حتى آخر نسمة من حياتى ، ولكنى لا أتهمك بالتفكير في هذا فحسب ، بل بقوله أيضا .

« أتعلمن كيف أكفر عن أخطائى في الفترة القصيرة التى أنا مضطر للمكث فيها بقربك ، بفعل ما لا يفعله أحد سواى : بمصارحتك برأى الناس فيك ، وبالصدوع التى عليك أن ترأبها في سمعتك^(٢٩) . »

وأحزن عنف هذه التهم مدام دينيه ، سواء أكانت مذنبه أم بريئة (ولا علم لنا بالحقيقة) ، فأبلغتها إلى حبيبها البعيد جريم . وأجاب بأنه قد حذرهما من « المآذق الشيطانية » ، التى ستورط فيها بإنزال روسو النزق الغريب الأطوار

في الإيرميتاج (٣٠) . ودعت جان - جاك إلى شفريت ، وحيته بالعناق والدموع ، وأجاب على الدموع بمثلها ، ولم تدل له بأى تفسير وصل إلينا علمه ، وتعشى معها ، ونام في بيتها ، ورحل في الغد مودعا بعبارات الصداقة .

وزاد ديدور الطين بلة . فقد أشار على روسو بأن يكتب إلى سان - لامبير معترفا بميله لصوفي ، مؤكدا له رغم ذلك وفاءها . ووعد روسو بأن يكتب (في رواية ديدرو) ولكن مدام دودتو رجته ألا يفعل ، وأن يدعها تنقد نفسها بطريقتها الخاصة من المآزق التي ورطها فيها هيامة وعيبتها . فلما عاد سان - لامبير من الجهة حدثه ديدرو بالعلاقة ، مفترضا أن روسو قد اعترف بها . ولام روسو ديدرو ورماه بخيانتته ؛ ولام ديدرو روسو ورماه بخديعته . ولم يتصرف تصرف الفلاسفة غير سان - لامبير . فقد جاء وصوفي إلى الإيرميتاج ، و « دعا نفسه إلى العشاء معي ... وعاملني بصرامة ولكن بروح الصداقة . » ولم يوقع عليه عقوبة أشد من النرم والشخير بينما كان جان - جاك يقرأ عاليا خطابه المطول إلى فولتير . على أن مدام دودتو لم تشجع المزيد من اللقاءات بروسو . وأعاد لها الخطابات التي كتبها له بناء على طلبها ، ولكن حين طلب خطاباته إليها قالت إنها أحرقتها . يقول « جرؤت على الشك في زعمها هذا ... وما زلت أشك . فلم تلق في النار قط خطابات كخطاباتي . لقد رأى الناس أن خطابات هلويز (لأبيلا) حارة ! فيا للسماء ! ، فماذا كانوا يقوون في خطاباتي هذه ؟ » (٣١) وأنكفا إلى عالمه الخيالي مجروحا شاعرا بالخزي ، واستأنف كتابة « هلويز الجديدة » ، وسكب فيه عواطف رسائله المشبوبة لمدام دودتو .

على أن صنوفا جديدة من الذل كانت في انتظاره حين عاد جريم من الحرب (سبتمبر ١٧٥٧) « لم أكد اتبين فيه جريم القديم » الذي كان فيما مضى « يعده شرفا له أن ألقى عليه نظرة » (٣٢) ولم يستطع روسو أن يفهم العلة في فتور جريم ، ولم يعرف أن جريم عرف بأمر الخطاب المهين الذي أرسله إلى مدام ديينيه . وكان جريم يقرب من جان - جاك أنانية ، ولكنه فيما عدا ذلك نقيضه عقلا وخلقا - فهو شكاك ، واقعي ، فظ ، قاس . (٣٣) وهكذا فقد روسو صديقين بخطاب واحد .

٣ - لفظ كبير

وحدثت أزمة جديدة حين قررت مدام دينيه في أكتوبر ١٧٥٧ أن تزور جنيف . وإليك قصة روسو :

« كتبت إلى تقول « يا صديقي ، سأقوم فوراً بالرحلة إلى جنيف ، لأن صدرى ساءت حالته ، وصحبتى أعتلت كثيراً ، بحيث يتعين على أن أذهب لاستشارة ترونشان . » وزادت دهشتي لهذا القرار الذي اتخذ هكذا فجأة ، وفي بداية أسوأ طقس في السنة ... وسألتها من سيصبحها ، فأجابت بأنه إنها ومعلمه مسيو دليفان ، ثم أردفت بغير اكتراث « وأنت يا عزيزي ، ألا تذهب أنت أيضاً ؟ » ولم يخطر لي أنها جادة فيما تقول ، لأنني في هذا الفصل كنت لا أكاد أقوى على المضي إلى حجرتي (أي السفر بين لاشفريت والإيرميتاج) فقد رحلت أمزح حول الفائدة التي يسديها مريض لآخر . ولم تكن هي ذاتها ، فيما بدا لي ، جادة في اقتراحها ، وإلى هنا انتهى الأمر » (٣٤) .

وكان له مبررات وجهية للزهد في مصاحبة المدام ، فقد حالت دون ذلك آلامه وأوصابه ، ثم كيف يستطيع أن يترك تريز ؟ أضف إلى ذلك أن الشائعات أرجفت بأن مضيفته حبلى ، من جريم على الأرجح ؛ وصدق روسو القصة حيناً وهنا نفسه على النجاة من موقف مثير للسخرية . ولكن المرأة المسكينة كانت صادقة ، فهي تعاني من السل ، ويبدو أنها كانت مخلصه في رغبتها في أن يرافقها روسو ، ولم لا يهجه أن يعود ، على نفقتها ، لزيارة المدينة التي كان يفخر كثيراً بأنه مواطن فيها ؟ وكتب ديدرو ، العالم بشعورها ، إلى روسو يناشده أن يأخذ طلبها مأخذ الجد ويستجيب له ، ولو لما في ذلك من بعض الرد على إحساناتها . وأجاب روسو بأسلوبه المعهود :

« أحس أن الرأي الذي تراه مصدره غيرك . وفضلاً عن عدم ميلي لأن أدع نفسي أساق على غير إرادتي تحت ستار اسمك من شخص ثالث أو رابع ، فإنني ألاحظ في هذه النصيحة الثانوية نوعاً من الغدر لا يتفق وصراحتك ، ويحسن بك أن تكف عنه مستقبلاً لأجلك ولأجلي . » (٣٥)

وفي ٢٢ أكتوبر أخذ خطاب ديدرو وجوابه عليه إلى لاشفريت وقرأهما « بصوت عال واضح » على جریم ومدام دينيه . وفي الخامس والعشرين من الشهر رحلت قاصدة باريس . وذهب روسو ليوودعها وداعا محرجا ، يقول « ولحسن الحظ قامت في الصباح ، وبقي لي من الوقت متسع للذهاب والغداء مع أخت زوجها » في أوبون .^(٣٦) وفي التاسع والعشرين (كما جاء في مذكرات مدام دينيه) كتب إلى جریم :

« قل لي يا جریم لم يعلن جسيع أصدقائي أن من واجبي أن أصحب مدام دينيه ؟ أمخطيء أنا ، أم أنهم كلهم مسحورون ؟ ... إن مدام دينيه مسافرة في مركبة أجرة لطيفة ، ويصحبها زوجها ، ومعلم ولدها ، وخمسة خدم أو ستة ... فهل أحتمل أنا السفر في مركبة أجرة ؟ وهل أطمع في القيام برحلة طويلة كهذه وبهذه السرعة الكبيرة دون أن يقع لي حادث ؟ وهل على أن أطلب وقوفها في كل لحظة لأنزل ، أم على أن أعجل بعذاباتي وساعاتي الأخيرة باضطراري إلى فرض القيود على نفسي ؟ (يلوح) أن أصدقائي المخلصين ... مصممون على إرهابي حتى الموت »^(٣٧) .

وفي ٣٠ أكتوبر غادرت مدام دينيه باريس قاصدة جنيف ، وفي ٥ نوفمبر (في رواية المذكرات) رد جریم على روسو :

« لقد بذلت ما وسعني من جهد لأتجنب الرد القاطع على الدفاع الرهيب الذي وجهته إلى . وأنت تلح على في أن أرد ... إنه لم يدر بخلدي قط أنه كان من واجبك أن تصحب مدام دينيه إلى جنيف . وحتى لو كان دافعك الأول هو أن تعرض عليها صحبتك لها ، لكان من واجبها أن ترفض عرضك ، وأن تذكر بما يجب عليك نحو مركزك ، وصحتك ، والمرأتين اللتين جررتها إلى معتكفك ؛ هذا رأي ... وأنت تجسر على أن تحدثني بعبوديتك ، أنا الذي كنت طوال أكثر من عامين الشاهد اليومي على كل دلائل الصداقة البالغة الحنان والكرم ، التي منحتها إياك هذه المرأة ، ولو استطعت أن أصفح عنك لرأيتني غير جدير بصداقة إنسان . أنني لا أريد أن أراك ما حييت ، وسأحسب نفسي

سعيدا إن استطعت أن أطرد من عقلي ذكرى سلوكك . سأطلب إليك أن تنساني ، وأن تكف عن إزعاجي .» (٣٨)

ومن جنيف كتبت مدام ديينيه إلى جريم : « لقد تلقيت شكر الجمهورية على الطريقة التي عاملت بها روسو واستقبلت وفدا رسميا من صانعي الساعات للغرض ذاته ... إن القوم هنا ينظرون إلى نظرة الإجلال من أجله .» (٣٩)

ونبها ترونشان إلى ضرورة بقائها عاما تحت رعايته الطبية . وكانت تختلف مرارا إلى بيتي فولير في جنيف ولوزان . وبعد حين لحق بها جريم ، وقضيا معا ثمانية أشهر في عيشة سعيدة . (*)

وفي ٢٣ نوفمبر ١٧٥٧ كتب إليها روسو (كما يروي) يقول :

إن كان ممكنا لإنسان أن يموت حزنا لما كنت الآن على قيد الحياة ... إن الصداقة قد انطفأت بيننا يا سيدتي ، ولكن ذلك الذي مضى وانقضى ما زالت له حقوق ، وأنا احترمها . فأنا لم أنس كرمك معي ، ولك أن تنتظري مني ما يمكن من عرفان بالجميل لشخص لا أستطيع أن أحبه بعد ...

« أردت أن أغادر الإيرميتاج . وكان ينبغي لي أن أفعل ، ويزعم أصدقائي أنه لا بد من بقائي هناك إلى الربيع ، وما دام أصدقائي يريدون هذا فسأبقى هناك إن وافقت .» (٤٠)

وفي أوائل ديسمبر جاء ديدرو لزيارة روسو ، فوجده ساخطا باكيا لما حل به من « استبداد » أصدقائه . وقد وردت رواية ديدرو لهذه الزيارة في خطابه المؤرخ ٥ ديسمبر إلى جريم :

« إن الرجل مسعور forcen ... لقد زرتة ، ولنته على شناعة سلوكه بكل القوة التي منحني إياها الصراحة والأمانة . وقد دافع عن نفسه في ثورة

(*) عادا إلى باريس في أكتوبر ١٧٥٩ ، وأصبح أيتها هناك أحد الصالونات الصغيرة وقد فاز كتابها في التربية بجائزة من الأكاديمية .

غضب أحرزنتنى ... إن هذا الرجل يقف جاثلا بينى وبين عملى ، ويربك عقلى ؛
وكان بجوارى أحد المحكوم عليهم بالهلاك الأبدى ... أى منظر هذا - منظر
رجل شرير ضار ! لا تدعى آراه ثانية ، فهو يحملنى على الإيمان بالشياطين
والجحيم . « (٤١)

وتلقى روسو ردا من مدام دينيه فى ١٠ ديسمبر . والظاهر أن جريم كان
قد نقل إليها ملاحظات روسو عن « عبوديته » فى الإيرميتاج ، لأنها كتبت
إليه بمرارة غير معهودة فيها :

« كل ما يسعنى عمله الآن أن أرثى لك ، بعد أن بذلت لك طوال سنوات
عديدة كل أمارات الصداقة الممكنة . فأنت شتى جدا ...

« وما دمت مصمما على مغادرة الإيرميتاج ، ومقتنعا بأنه ينبغى لك أن
تفعل ، فإنه يدهشنى أن يقنعك أصدقاؤك بعد إلحاح بالبقاء فيه . أما أنا فلا
أستشير أصدقاؤى أبدا فى أمر واجبى ، وليس عندى ما أزيد فى أمر واجبك . « (٤٢)

وفى ١٥ ديسمبر ، ورغم حلول الشتاء ، غادر روسو الإيرميتاج ومعه
تريز وكل متعلقاتهما . أما أمها فقد أرسلها لتعيش فى باريس مع بناتها الأخرى
ولكنه وعد بأن يسهم فى نفقاتها . وانتقل إلى كوخ فى مونمورنس أجره له
وكيل اللوى - فرانسو دبوريون ، أمير كونتى . هناك ، وقد ولى ظهره
لأصدقائه السابقين ، أنتج فى خمس سنوات ثلاثة من أعظم كتب القرن تأثيرا .

٤ - خصامه مع جماعة الفلاسفة

كان مسكنه الجديد يقع فيما سماه « حديقة مون - لوى » وهو « حجرة
واحدة » أمامها مرجة ، وفى طرف الحديقة حصن قديم فيه « طاقة خالصة
على الهواء . » وكان عليه أن يستقبل زواره حين يجيئون « وسط أطباق القذرة
وقدورى المحطمة » ويرتعد مخافة أن ينخسف « أرض الحجرة التى
تهدمت » تحت أقدام ضيوفه . ولم يكثرث لفقره ، فقد كان يكسب ما يكفيه

ينسخ الموسيقى ، اغتبط بكونه حرفيا كفتا (٤٣) ، وبأنه لم يعد تابعا لامرأة غنية . وكان يرد هدايا جيرانه اللطفاء حين يرسلونها إليه ، فقد أحس أن من الدل أن يأخذ المرء أكثر مما يغطي . وأرسل له الأمير دكوتى الدجاج مرتين ، فأخبر الكونتيسة دبوليه أنه سيرد الهدية الثالثة إن جاءت .

ونلاحظ عرضا كثرة الأرسقراطيين الذين ساعدوا ثوار التنوير . لا لموافقهم على آرائهم بقدر تعاطفهم الكريم مع العبقرية المحتاجة . لقد كان فى نبلاء النظام القديم الكثير من عناصر النبى ، وقد خصت الأرسقراطية روسو بصداقتها رغم تنديده بها . وكان الحرفى المعز بنفسه ينسى نفسه أحيانا ويفخر بأصدقائه حملة الألقاب ، قال فى معرض حديثه عن مرجته :

« كانت تلك الشرفة قاعة الجلوس التى استقبلت فيها مسيو ومدام لكسمبورج ، والدوق دفيروا ، وأمير تنجى ، ومركيز أرمنتير ، ودوقة مونررنسى ، ودوقة بوفليه (*) ، والكونتيسة دفانتنوا ، والكونتيسة دبوليه ، وغيرهم من نفس الرتبة ... الذين تنازلوا بأن يحجوا إلى مون -- لوى » (٤٤)

وكان منزل المرشال والمرشالة دلكسمبرج غير بعيد من كرخ روسو . وما لبثا عقب وصوله أن دعواه إلى العشاء فرفض الدعوة . ثم كرراها فى صيف ١٧٥٨ فرفضها ثانية . ثم أتيا حوالى عيد القيامة فى ١٧٥٩ ومعهما ستة من أصدقائهم النبلاء يتحدونه فى معقكه . وراعه الأمر فقد اكتسبت المرشالة يوم كانت الدوقة دبوليه سمعة بأنها فتنت عددا هائلا من الرجال . ولكنها خلفت خطاياها وراءها وغدت فى نضجها امرأة فيها فتنة الأمومة لا مجرد فتنة الجنس ؛ وسرعان ما أذابت تحفظه الحجول وهزته ليشارك فى حديث حتى . وتساءل الزوار لم يعيش رجل أوتى هذه المواهب فى هذا الضنك . ودعا المرشال روسو وتريز ليذهبا ويعيشا معه حتى يمكن لإصلاح كونهما ؛ ولكن

(*) نستطيع فى زحمة أفراد آل بوفليه الذين دخاوا التاريخ فى القرن الثامن عشر أن نميز (١) دوقة بوفليه ، التى أصبحت مرشالة اكسمبورج . (٢) مركيزة بوفليه ، خليعة ستانلاس لسكزنسكى (٣) كونتيسة بوفليه ، صديقة ديفد هيوم وهوارس ولبول .

جان - جاك ظل على مقاومته ؛ وأخيرا اقتنع هو وتريز بأن يسكنا حيننا « القصر الريفي الصغير » الواقع في ضبعة لكسمبورج . فانتقلا إليه في مايو ١٧٥٦ . وكان روسو أحيانا يزور لكسمبورج وزوجته في بيتهما الفخم ، هناك كان يغري بسهولة بأن يقرأ عليهما وعلى ضيوفهما بعض فصول الرواية التي كان يكملها . وبعد بضعة أسابيع عاد هو وتريز إلى كونخهما ولكنه واصل زيارته لآل لكسمبورج ، وظلا هما على وفأتهما له طوال تقلبات مزاجه . وشكا جريم من أن روسو « هجر أصدقائه القدامى واستبدل بنا قوما من أعلى الطبقات »^(٤٥) ولكن جريم هو الذي نبذ روسو ، وفي خطاب كتبه جان جاك إلى مالزيرب في ٢٨ يناير ١٧٦٢ رد على من اتهموه بالتنديد بالنبلاء ، وبالتودد إليهم :

« سيدي ، إنني أكره كرها شديدا تلك الطبقات الاجتماعية التي تتسلط على غيرها ... ولا يضايقني أن أعترف لك بهذا وأنت سليل أسرة مشهورة بعراقها ... إنني أبغض العظماء ، أبغض وضعهم ، وقسوتهم ، وأهواءهم ... ورائلهم ... يمثل هذا المزاج ذهبت كانسان يجر جرا إلى قصر (آل لكسمبورج) الريفي في مونمورنس . ثم رأيت سادته ؛ وقد أحبوني ، وأحببتهم يا سيدي ، وسأظل أحبهم ما حييت ... وإنني لأبذل لهم ، لا أقول حياتي فتلك عطية هزيلة .. بل الفخر الوحيد الذي مس قلبي - وهو ذلك التشريف الذي أتوقعه من الخلف ، والذي سيمنحني ما في ذلك شك ، لأنه حتى ، ولأن الخلف منصفون دائما . »

وكان يود أن يحتفظ بصديقة سابقة - هي مدام دودتو ، ولكن سان - لامبير لامها على الشائعات التي ربطت فيها باريس اسمها باسم روسو ، فاختبرت روسو بأن يكف عن الكتابة لها . وتذكر أنه اعترف لديبرو بحبه لها ، فخلص الآن إلى أن ديبرو هو الذي ثرثر به في الصالونات و « عقدت النية على مقاطعته إلى الأبد . »^(٤٦)

ولكنه اختار أسوأ اللحظات والوسائل ففي ٢٧ يوليو ١٧٥٨ كان هلفتيوس قد نشر في كتابه « في العقل » هجوما عنيفا على الكهنوت الكاثوليكي . وأفضت

الضجة المترتبة على هذا الهجوم إلى المطالبة المتصاعدة بحظر « الموسوعة » (التي كان قد صدر منها سبعة مجلدات) وكل الكتابات التي تنتقد الكنيسة أو الدولة . وكان المجلد السابع يتضمن مقال دالامبير المتهور عن جنيف ، الذي امتدح فيه القساوسة الكلفنين على عقيدة التوحيد التي يتكتمونها وناشد السلطات الجنيقية أن تسمح بإقامة مسرح . وفي أكتوبر ١٧٥٨ نشر روسو « خطابا إلى ميسو دالامبير عن المسرح » وكان على اعتدال لهجته أشهر حرب على عصر العقل ، وعلى زندقة فرنسة منتصف القرن الثامن عشر وفساد خلقها ، وقد بذل روسو في مقدمته قصارى جهده في التبرؤ من ديدرو ، دون أن يذكر اسمه صراحة : « كان من بين أصحابي أرسنارخوس » رجل صارم ، عادل ولكنه لم يعد صاحبا لي واستأريد مزيدا من صحبته ، على أنني لن أكف عن الأسف عليه وأن قلبي ليفتقده أكثر حتى من كتاباتي ، « وأضاف في هامش معتقدا أن ديدرو قد أفشى سره لسان — لامبير :

« إن كنت قد امتشقت حساما على صديق فلا تيأس لأن هناك سييلا لرد الحسام إليه وإن كنت قد اشقيته بكلامك فلا تخف لأن في الإمكان مصالحته . أما الإهانة واللوم المؤذي وافشاء السر وجرح قلبه بالخيانة فهذه كلها تسخطه عليك وهو تاركك إلى غير عودة (٤٧) .

أما الخطاب الذي تبلغ صفحاته في الترجمة ١٣٥ فكان بعضه دفاعا عن الدين كما يبشر به علانية في جنيف . وكان روسو نفسه موحدا — أي رافضا للاهوت المسيح كما سيدل على ذلك كتاب « إميل » بعد قليل ، ولكنه حين تقدم طالبا المواطنة الجنيقية كان قد أقر بالعقيدة الكلفية الكاملة ، وفي هذا الخطاب دافع عن الدين القديم ، وعن الإيمان بالوحي الإلهي ، باعتبارهما أمرين لا غنى عنهما لاختلاق الشعب . « أن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس إلا الحساب ، إن ما يمكن إثباته لأغلبية الناس بالعقل ليس الحساب النفعي للمصلحة الشخصية » ومن ثم كان مجرد (الدين الطبيعي) سيهبط بالأخلاق إلى مستوى لا يزيد على تجنب اكتشاف الذنوب .

ولكن اللاهوت كان مشارا صغيرا للجدل في حجة روسو ، أما هجمته الأمامية فكانت على اقتراح دلامبير بأن يصرح باقامة مسرح في جنيف . هنا لم يكن العدو الخفي هو دلامبير ، بل فولتير . فولتير الذي حجب سناء شهريته نزىلا بجنيف ، فخر روسو بمواطنته الجنيفية ، حجبها آثار حنقه ، فولتير الذي جرؤ على تقديم التمثيليات في جنيف أو قربها ، والذي حث لامبير بلا شك على أن يضمن مقالا في الموسوعة نداء بإنشاء مسرح جنيفي . فماذا ؟ أتدخل في مدينة اشتهرت بأخلاقها البيورثانية ضربا من اللهو . كان في كل مكان تقريبا بمجد الفساد الخلقى ؟ أن الدرامات المحزنة تصور الجريمة دائما ، وهي لا تظهر العراطف كما ظن أرسطو ، بل تلهبها ، لاسيما عواطف الجنس والعنف . وأما التمثيليات الهزلية فنادر ما تعرض الحب الزوجي النقي ، وكثيرا ما تهزأ بالفضيافة ، كما فعل حتى مولير في مسرحيته « مبعوض البشر » . وكل الناس عليهم أن الممثلين يحيون حياة العريضة والفساد ، وأن معظم ممثلات المسرح الفرنسي الفاتنات هن مضرب الأمثال في فوضى الجنس ، وبؤر ومصادر الفساد في مجتمع يعبدهن . وربما كانت شرور المسرح هذه في المدن الكبيرة مثل باريس ولندن لا تؤثر إلا في شطر صغير من السكان ، أما في مدينة صغيرة كجنيف (لا يسكنها أكثر من ١٤,٠٠٠ نسمة) فإن سمومها تتغلغل في جميع الطبقات ، وتثير العروض أفكارا مولعة بالجديد وحربا بين الأحزاب .^(٤٨)

وإلى هنا كان روسو يردد الرأي البيورثاني أو الكلفني في المسرح ، ويقول في فرنسا عام ١٧٥٨ ما قاله من قبل ستيفن جوسون في إنجلترا عام ١٥٧٩ ، ووليم يرين عام ١٦٣٢ ، وجريمي كوليبار عام ١٦٩٨ . ولكن روسو لم يقتصر على التنديد . فهو لم يكن بيورثانيا ؛ ومن ثم دعا إلى الرقص والمراقص تحت رعاية الدولة وإشرافها . وقال إنه ينبغي أن تفر أسباب الترفيه العامة ولكن من نوع إجتماعي وصحي ، كالرحلات الحلوية ، والألعاب في الهواء الطلق ، والمهرجانات ، والاستعراضات (هنا أضاف روسو وصفا نابضا بالحياة لسباق زوارق على بحيرة جنيف .^(٤٩)

ويقول لنا روسو أن الخطاب « أصاب نجاحا كبيرا » فقد بدأت باريس

تمل حياة الفساد ؛ ولم يعد هناك لذة في الانحرافات الخارجة على العرف التي أصبحت هي ذاتها عرفا . فلقد أتخمت المدينة برجال يسلكون مسلك النساء ، ونساء يتحرقن شوقا إلى أن يكن كالرجال . لقد شيعت من الدراما الكلاسيكية وأشكالها الطنانة المتكلفة ورأت حقارة قواد مدام دبومبادور وجنودها أمام جند فرديريك الاسبرطين . وكان الاستماع إلى فياسوف يمجد الفضيلة تجربة منعشة وسيزداد تأثير « الخطاب » الأخلاقي حتى يشارك هو وكتابات روسو الأخرى في إحداث عودة للياقة تكاد تكون ثورية في عهد لويس السادس عشر .

ولم يكن في وسع الفلاسفة أن يتوقعوا هذا . فالذي أحسوا به في إعلان روسو هو أنه عمل من أعمال الخيانة ، لأنه هاجمهم في لحظة خطرهم الأكبر . ففي يناير ١٧٥٩ حظرت الحكومة نهائيا نشر الموسوعة أو بيعها . وحين ندد روسو بأخلاق باريس رماه أخصائه القدامى بالنفاق . وقد تذكروا مطاردته لمدام دودتو ، وحين ندد بالمرشح نوها بأنه كتب « كاهن القرية » و « نارسيس » للمسرح ، وأنه كان يختلف إلى المسرح . ورفض سان - لامبير برسالة جافية (١٠ أكتوبر ١٧٦٨) نسخة « الخطاب » التي أرسلها إليه روسو :

« لا أستطيع قبول هديتك ، ولعل لك عذرا - على غير ما أعلم - في الشكوى من ديدرو ، ولكن هذا لا يعطيك حق إهانته علنا . فأنت لا تجهل طبيعة الاضطهادات التي يعانها ولست أملك يا سيدي إلا أن أقول لك إن هذا العمل الشائن الذي اقترفته صدمني كثيرا ... كلانا يختلف في مبادئنا اختلافًا أشد من أن يتيح لنا أن ننسجم . فانس أنني موجود ... وأني أعذك بأن أنسى شخصك ، ولا أذكر عنك شيئا إلا مواهبك . » (٥١)

على أن مدام دينيه حين عادت من جنيف شكرت روسو على النسخة التي بعث بها إليها ، ودعته للعشاء فذهب ، والتقى بسان - لامبير ومدام دودتو آخر لقاء .

ووافاه من جنيف أكثر من عشرة خطابات ثناء . وحظر قضاة جنيف على فولتير عرض أي مسرحيات على أرض جنيف بعد أن شجعهم موقف روسو . ونقل فولتير مواهبه المسرحية إلى تورنيه ، وانتقل هو إلى فرنيه . وأحس

بوجع الهزيمة ، فاتهم روسو بأنه هارب مارق ، وأسف على تردى قطيع «الفلاسفة» الصغير إلى هوة صراع يفنون فيه أنفسهم . وكتب يقول «إن جان - جاك السبيء السمعة هو يهوذا الجماعة»^(٥١) ورد روسو بخطاب (٢٩ يناير ١٧٦٠) إلى الراعي الجنيني بول مواتو :

«أتحدثني عن ذلك الرجل فولتير ؛ لم يارث اسم ذلك المهرج رسائلك ؟ لقد دمر ذلك التعس وطني (جنيف) . ولو كان احتقاري له أقل لكرهته أكثر . وأنا لا أرى في مواهبه العظيمة إلا شيئاً مخزيا يضاف إلى خزيه ، ويحط من قدره بسبب الطريقة التي يسخر بها ... إيه أيها المواطنين الجنيفيون ، إنه يكلفكم غالبا جزاء إيوائكم له !»^(٥٢)

وأحزن روسو أن يعلم أن فولتير يخرج التمثيليات في تورنيه ، وأن كثيرا من المواطنين الجنيفيين يعبرون الحدود إلى فرنسا ليشهدوا هذه الحفلات - لا بل ليشارك بعضهم فيها . ووجد استياؤه مبررا آخر للحرب حين طبع خطابه الذي أرسله إلى فولتير عن زلزال لشبونة في مجلة برلين (١٧٦٠) ، لأن فولتير فيما يبدو أعار المخطوطة في غير مبالاة لأحد الأصدقاء . فأرسل روسو الآن (١٧ يونيو) إلى فولتير خطابا من أعجب الخطابات في رسائل هذا العصر الصاخب . قال بعد أن لام فولتير على نشر الخطاب دون إذنه :

«إنني لا أحبك يا سيدي . فلقد آذيتني أنا تلميذك المتحمس لك أبلغ الأذى . لقد دورت جنيف جزاء على الملجأ الذي قدمت لك . ولقد نفرت مواطني من جراء المديح الذي مدحتك به بينهم . وأنت الذي تجعل مقامي في وطني شيئا لا أطيعه ، أنت الذي ستضطرنني للموت على أرض غريبة ، محروما من كل تعزيات المحتضرين ، ملقى على كوم من أكوام المهملات في ازدراء ، بينما يحيط بك كل ما يستطيع إنسان أن يطمع فيه من أسباب التكريم في وطني . فأنا باختصار أكرهك ، لأنك هكذا شئت ، ولكني أكرهك بمشاعر إنسان ما زال في وسعه أن يحبك لو كنت قد رغبت في حبي . ولم يبق من جميع المشاعر التي امتلأ بها قلبي نحوك سوى الإعجاب بعبقريتك الرائعة ، وحب

كتاباتك . وإذا كنت لا أكرم فيك غير مواهبك فليس للذنب ذنبى . ولن يوجد قصور أو نقص أبداً في الاحترام الواجب لها ، ولا في المسلك الذى يقتضيه ذلك الاحترام . « (٥٣)

ولم يجب فولتير ، ولكنه كان يدعو روسو سرا « المشعوذ » و « المحنون » (٥٤) و « النسناس الصغير » وقد كشف فى رسائله لدالامبير عن نفس لا تقل حساسية وتأججا عن نفس جان - جاك :

« تلقيت رسالة طويلة من روسو . لقد جن جنونا مطبقا ... فهو يهاجم المسرح بعد أن كتب هو نفسه تمثيلية هزيلة رديئة ؛ هو يهاجم فرنسا التى تطعمه ؛ وهو يجد خمسة أضرلاع متعفنة أو ستة من برميل ديوجين ويتسلقها لينبحنا ؛ وهو يتخلى عن أصدقائه . ويكتب إلى - إلى ! - أشد ما سود به متعصب الصحائف إهانة ... ولولا أنه قزم حقير لا أهمية له ، انتفخت أوداجه غرورا ، لما كان فى الأمر أذى يذكر ؛ ولكنه أضاف إلى وقاحة خطابه عار التآمر مع متنطعى السوسنيين هنا للجيلولة بينى وبين إقامة مسرح لى فى تورنيه ، أو على الأقل لمنع المواطنين من التمثيل فيه معى . وإذا كان قصده من هذه الحيلة الوضيعة أن يعد لنفسه عودة ظافرة إلى الأزقة الحقيمة التى نشأ فيها ، فذلك فعل وغد ، ولن أصفح عنه ما حيت . ولو أن أفلاطون لعب على لعبة من هذا النوع لانتقمت منه ، فما بالك بتابع خانع لديوجين . إن مؤلف « ألويزا الجديدة » ليس إلا وغدا شيريرا . « (٥٥)

فى هذين الخطابين اللذين كتبهما أشهر كاتبين فى القرن الثامن عشر نستشف من وراء تيارات العصر التى يحسبها الناس غير شخصية ، الأعصاب التى اشتد إحساسها بكل لطمة فى الصراع ، والغرور البشرى المشترك الذى تضطرب به أفئدة الفلاسفة والقديسين .

٥ - هلويز الجديدة

إن الكتاب الذى أنخطأ فولتير فى تسميته كان طوال ثلاث سنين ملاذا لروسو من أعدائه ، وأصدقائه ، والعالم . بدأه عام ١٧٥٦ . وفرغ منه فى

سبتمبر ١٧٥٨ ، وأرسله إلى ناشر في هولندا ، وظهر في فبراير ١٧٦١ باسم « جولى ، أو هلويز الجديدة ، رسائل عاشقين جمعها ونشرها ج. ج. روسو » . وصياغة الرواية في شكل رسائل كانت عادة قديمة ، ولكن لعل الذى دعا روسو إلى التصميم عليها هو محاكاته رواية رتشر دسن « كلاريسا » .

والقصة بعيدة الاحتمال ولكنها نسيج وحدها . فجولى هى ابنة بارون ديتانج ، وهى فى السابعة عشرة أو نحوها . وتدعو أمها الشاب الوسيم سان - بـرو ليكون معلمها الخاص . ويقع أيلار الجديد هذا فى غرام هلويز الجديدة ، كما كان يمكن أن تتوقعه أى أم فى دنيا الواقع . ولا يلبث أن يرسل إلى تلميذته رسائل حب حددت اللحن لقرن من القصص الرومانسى :

« إنى لأرتعد كلما تصافحت أيدينا ، ولا أدرى كيف يحدث هذا ، ولكنها تصافح دوما . وإنى أجفل حالما أحس لمسة أصبعك ، وتأخذنى حمى أو قولى حمى مصحوبة بهذيان فى هذه المتع ؛ وتتخلى عنى حواسى شيئاً فشيئاً ، فإذا خرجت هكذا عن طورى فإذا أستطيع أن أقول ، أو أفعل ، وأين أختبئ ، وكيف أكون مستولاً عن سلوكى ؟ »^(٥٦) ثم يقترح أن يرحل ولكنه يكتب بالكلام دون الفعل :

« وداعاً أذن يا جولى ، المفرطة الفتنة . . . غداً سأكون رحلت إلى الأبد . ولكن ثقبى أن غرامى العنيف الطاهر بك لن ينتهى إلا بانتهاء حياتى ، وأن قلبى المفعم بهذا المخلوق الملائكى ، لن يهبط بنفسه إلى إفساح مكان فيه لحب ثان ، وأنه سيوزع كل ولائه المستقبل بينك وبين العفة ، وأنه لن يدنس لهيب آخر المديح الذى عبدت عليه جولى^(٥٧) » .

وقد تبسم جولى لهذا التعبد ، ولكن فيها من الأنوثة ما يمنعها من اقصاء مثل هذا الكاهن المهيج عن المديح . فتطلب إليه أن يؤجل قراره . فالاتصال الكهربى بين الذكر والأنثى قد أحدث بها على أى حال اضطراباً مماثلاً ، وسرعان ما تعترف بأنها هى أيضاً قد أحست باللذغة الغامضة : « منذ أول يوم التقينا فيه تشربت السم الذى يسرى الآن فى حواسى

وعقلي ، شعرت به فوراً وعينك ، وعواطفك ، وحديثك ، وقلمك المذنب - كلها تزيد كل يوم أذاه (٥٨) . ومع ذلك يتعهد بالآلا يطلب مطلباً أشد إثمًا من قبلة « كوني عفيفة وإلا احتقرت ، وسأكون نجديراً بالإحترام وإلا عدت كما كنت ، ذلك هو الأمل الوحيد الباقي لي ، والذي يفضل الأمل في الموت » . ويوافق سان - برو على أن يجمع بين الهديان والعفة ، ولكنه يعتقد أن هذا يتطلب معونة خارقة من السماء .

« أيتها القرى السماوية ، . . . انفضي في روحا تطيق السعادة العظمى ! أيتها الحب الإلهي ! يا روح وجودي ، أواه ، اسندني لأنني أوشكت على السقوط تحت وطأة الوجد ! . . . أواه كيف أحتمل سيل السعادة المتدفق الذي يفيض به قلبي ؟ كيف أطرده هو اجس عاشقة خائفة ؟ (٥٩) . وهكذا طوال ٦٥٧ صفحة . فإذا بلغنا صفحة ٩١ قبلته . والكلمات تقصر عن وصف « حالي بعد ذلك بلحظة ، حين شعرت - إذ ارتعشت يداي - برعدة زقيقة - وشفتك المعطرتان - شفتا جولي حبيبتى - تضغطان شفتي ، وأنا بين ذراعها ! وبأسرع من البرق انطلقت من كياني نار مباغته (٦٠) . فإذا وصلنا الرسالة التاسعة والعشرين وجدنا أنه أغواها ، أو أنها أغوته . ويهيم هو في عوالم من النشوة ، ولكنها تحسب كل شيء قد ضاع . « إن لحظة غفلة واحدة قد أسلمتني إلى تعاسة أبدية ، لقد سقطت في وهدة العار التي لا يخرج منها (٦١) .

وتموت أم جولي كمدا حين تعلم بأن بكارتها فضت . ويقسم البارون أن يقتل سان - برو ، فيخرج هذا في رحلة بحرية حول الأرض . وتزوج جولي فولمار ، وهو روسي كريم المولد . متقدم السن ، تكفيرا عن ذنبا وطاعة لأبيها ، ولكنها تظل تراسل سان - برو خفية ، وتشعر نحوه بعاطفة أقوى من حبها الواجب عليها لزوجها . ويدهشها أن تجد فولمار إنساناً طيباً ، وفيها ، حريصاً على راحتها ، منصفاً كريماً

مع الجميع ، وذلك رغم إلحاده . وفي رسالة كتبها لسان - برو تؤكد له أن الرجل والمرأة قد يجدان الرضى في « زواج المصلحة » ولكنها لن تعرف السعادة الكاملة أبدا . فاتحرافها قبل زواجها يثقل ذاكرتها وأخيرا تعترف لزوجها بلحظة الإثم تلك . ويقول أنه علم بها ، وصمم على ألا يذكرها أبدا . ويخبرها بأنه لم يكن إثمًا قط ، وتأكيدها لغفرانه لها يدعو سان - برو للحضور والإقامة مع الأسرة معلما خاصاً لطفلهما ، ويحضر سان - برو ؛ ويؤكد لنا المؤلف أن الثلاثة يعيشون معاً في وفاق حتى يفرق بينهم الموت . ويغيب الزوج العجيب أياما . وتخرج جولى وسان - برو للتجديف على بحيرة جنيف ، ويعبران إلى سافوى ، ويريهما الصخور التي كتب عليها اسمها في منفاه ، ويبكى ؛ وتمسك بيده المرتعشة ، ولكنهما يعودان بريئين من الأثم إلى بيتها في كلارنس في إقليم فو (٦٢) .

ويعجبان كيف يمكن لفولمار أن يكون بهذه الطبيعة دون إيمان ديني . ويفسر سان - برو هذه الظاهرة الشاذة ، وهو كجولى بروتستنتي متمسك بدينه :

« ان فولمار الذى أقام فى أقطار كاثوليكية رومانسية لم يغيره ما خبره من إيمان أهلها . بأن يرى فى المسيحية رأياً أفضل . فقد رأى أن مذهبهم لا يتجه إلا لمصلحة كهنتهم ، وهو يتألف بجملة من حركات مشيرة للسخرية وورطانة بألفاظ لا معنى لها . ولاحظ أن ذوى الفطرة السليمة والأمانة مجتمعون على رأيه ، وأنهم لا يتخرجون من الجهر برأيهم ، لا بل أن القساوسة أنفسهم فى الخفاء كانوا يهزأون سراً بما يعلمون ويثبتون فى الأذهان علانية ، ومن ثم فكثيراً ما أكد لنا أنه بعد أن أنفق كثيراً من الوقت والجهد فى البحث ، لم يلتقى قط بأكثر من ثلاثة قساوسة يؤمنون بالله (٦٣) » . ويضيف رسو فى حاشية ، معاذ الله أن أوافق على هذه التأكيدات القاسية الطائشة ! ومع ذلك يذهب فولمار بانتظام إلى

الخدمات الدينية البروتستنتية مع جولى ، بدافع من احترامه لها ولجيرانه .
وترى جولى وسان - برو فيه « أغرب اللامعقول » - إنسانا يفكر تفكير
ملحد ويسلك مسلك مسيحي^(٦٤) .

وهو لا يستحق اللطمة الأخيرة ، ذلك أن جولى تعهد إلى فولمار
وهى على وشك الموت بحمى أصابتها وهى تنقذ ابنها من الغرق - بخطاب
غير مختوم يعلن لسان - برو أنه كان على الدوام حبا للوحيد . وفى
وسعنا أن نفهم دوام ذلك الحب الأول ، ولكن لم تجزى طول وفاء
زوجها وثقته بها بمثل هذا الرفض القاسى وهى على فراش الموت ؟ أن
هذا لا يكاد يتفق والنبيل الذى اصفاه المؤلف على خلق جولى .

ومع ذلك فهى من أعظم اللوحات فى القصص الحديث . وقد استلهمها
روسو من وحى ذكرياته الخاصة رغم أن (كالاريسا) رتشر دسن أوحى
بها فى أغلب الظن ، الفتاتان اللتان قادا جواديهما عبر النهر فى آنسى ،
والذكريات التى احتفظ بها فى اعزاز لمدام دافاران حين كانت تبسط
عليه حمايتها فى سنوات صباه ، ثم لمدام دودتو ، التى أشعرته بفيض
الحب حين وقفت سداً أمام شهوته ، وبالطبع ليست جولى واحدة من
هاتين المرأتين ، ولعلها ليست أى امرأة التقى بها روسو طيلة حياته ، بل
مثالاً مخلقا من أحلامه . وقد أفسد الصورة اصرار روسو على جعل
شخصه كإياها تقريباً تتكلم كروسو ، فجولى حين تزيدها الأمومة عمقا
تغدو حكيمة من الحكماء ، فتطيل الحديث فى كل شىء من التدبير
المنزلى إلى الاتحاد الصوفى بالله . وهى تقول لا بد أن نفحص صحة هذه
الحجة ، ولكن أى امرأة جديرة بالحب نزلت يوما ما إلى مثل
هذه التفاهة .

أما سان - برو فهو بالطبع أشبه الشخص بروسو ، حساس لكل
مفاتن النساء ، تواق للركوع عند أقدامهن التى يحلم بها ، ويسكب عبارات
الولاء والحب البليغة التى ردها فى وحدته . ويصفه روسو بأنه لا يفتأ

يأتي عملاً مجنوناً ثم يحاول أن يثوب إلى رشده^(٦٥). وسان - برو إنسان متزمت أشد التزمت باليقاس إلى لفليس الوجد السفر كما صورته رتشر دسن. وهو الآخر لأبد أن ينطق بلسان روسو ، فهو يصف باريس بأنها دوامة من الشرور - غنى فاحش ، وفقير مدقع ، وحكومة عاجزة ، وهواء فاسد ، وموسيقى رديئة ، وأحاديث تافهة ، وفلسفة باطلة ، وأنهار كامل تقريباً للدين ، والفضيلة ، والزواج ، وهو يردد مقال روسو الأول عن صلاح الإنسان الفطري وتأثيرات الحضارة المفسدة المحطة ، ويهنيء جولي وفولمار على أثارهما حياة الريف الهادئة الصحية في كلارنس .

أما فولمار فأكثر الأشخاص أصالة في معرض روسو . فن كان النموذج الذي حاكه المؤلف على غراره ؟ لعله دولباخ ، « الملحد اللطيف » ، والبارون الفليسوف ، والمادى الفاضل ، والزوج الوفي لزوجته واحدة ومن بعدها لأختها . أو لعله سان - لامبير ، الذي صدم روسو بتبشيريه بالإلحاد، ولكنه صفح عنه لمغازلته خليلته . ويعترف روسو صراحة باستخدامه النماذج الأصلية الحية والذكريات الشخصية :

« إن قلبي المفعم بما وقع لي ، والذي لم يزل جياشاً بالكثير من الأنفعالات العنيفة ، أضاف الشعور بآلامه إلى الأفكار التي أوحى لي بها التأمل ... وعلى غير وعي مني وصفت المواقف التي كنت فيها آنئذ ، ورسمت صوراً لجرير ، ومدمام ديينيه ، ومدمام دودتو ، وسان - لامبير ، ولشخصي^(٦٦) » .

وخلال لوحات الأشخاص هذه عرض روسو جوانب فلسفته كلها تقريباً . فأعطانا صورة مثالية للزواج السعيد ، ولضبيعة تدار بكفاية ، وعدالة ، ورحمة ، ولأطفال يربون ليكونوا مزيجاً مثالياً من الحرية والطاعة ، ومن ضبط النفس والذكاء . وأستبق الحجج التي سيوردها في كتابه « إميل » : أن يوجه التعليم أولاً لتربية البدن ليكون صحيحاً ، ثم لتربية الخلق ليعود النظام الصارم ، وبعد ذلك فقط لتربية الذهن ليعود الحدل العقلي . تقول جولي

« إن السبيل الوحيد لجعل الأطفال طيعين ليس سبيل الحدل العقلي معهم ، بل إقناعهم بأن الحدل العقلي فوق سنهم^(٦٧) . وينبغي ألا نلجأ إطلاقاً للحدل العقلي ، أو ألا يكون هناك أى تعليم عقلي ، قبل سن البلوغ . وحرصت القصة حرصاً شديداً على مناقشة الدين . فترى إيمان جولى يغدو الأداة لخلاصها ، وقد ألهمها الاحتفال الدينى الذى قدس زواجها إحساساً بالتطهر والوفاء . ولكنه إيمان بروتستنتى خالص ذلك الذى يشيع فى الكتاب . فسان - برو يسخر مما يبدو له من نفاق القساوسة الكاثوليك فى باريس ؛ ويندد فولمار بعزوبة الكهنة لأنها قناع يخفى وراءه الفجور ، ويضيف روسو بشخصه هذه العبارة : « إن فرض العزوبة على جماعة كبيرة مثل قساوسة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ليس لمنعهم من أن يكون لهم زوجات ، بقدر ما هو لأمرهم بأن يقنعوا بزواج غيرهم من الرجال^(٦٨) » . ويصرح روسو بهذه المناسبة بتأييده للتسامح الدينى ، ويبسطه حتى على الملحدين ، « أن المؤمن الحقيقى لا يتعصب ولا يضطهد غيره . ولو كنت قاضياً ؛ ولو قضى القانون بعقوبة الموت على الملحدين ؛ لبدأت بحرق كل مبلغ يشى بإنسان آخر ، لأنه هو نفسه ملحد^(٦٩) » .

وكان للقصة تأثير بالغ فى تنبيه أوروبا لمفاتيح الطبيعة وروائعها . ففى فولتير ؛ وديدرو ، ودالامبير ، لم تشجع حمى الفلسفة وحياة الحضرة الأحساس المرهف بجلال الجبال وجمال ألوان السماء . أما روسو فقد تميز بولادته فى أحضان أزوع مناظر أوروبا وقعا فى النفوس . وكان قد مشى من جنيف متجولاً فى سافوى عبر الألب إلى تورين ، ومن تورين إلى فرنسا ؛ وأستمع بمشاهد الريف وأصواته وعبيره ؛ وأحس بكل شروق شمس كأنه إنتصار الأله على الشر والشك . وقد تصور توافقا صوفياً بين حالات مزاجه والمزاج المتغير للأرض والهواء ؛ وعانقت نشوة حبه كل شجرة وزهرة ، وكل ورقة عشب . وتسلق الألب إلى نصف ارتفاعها ، ووجد نقاء فى الهواء ، خيل إليه أنه يطهر أفكاره ويجلوها . وقد وصف هذه التجارب بأحاساس وحيوية جعلها من تسلق الجبال ، لاسيما فى سويسرة ، رياضة من أكبر رياضات أوروبا .

ولم يحدث من قبل في الأدب الحديث أن ظفر الوجدان ، والعاطفة المشبوية، والحب الرومانسى ، يمثل هذا العرض والدفاع المستفيضين البليغين . فلقد أعلن روسو ، في تمرده على عبادة العقل من بوالو إلى فولتير ، مكانة الوجدان العليا وحقه في أن يسمع في ترجمة الحياة وتقييم القصائد ، وبرواية « هلويز الجديدة » أعلنت الحركة الرومانسية تحديها للعصر الكلاسيكى . وقد سبقها بالطبع لحظات رومانسية حتى في عز الكلاسيكية ، مثال ذلك أن أوتوريه دورفيه داعب الحب الريفى في قصته « لاستريه » (١٦١٠ — ١٦٢٧) ، وأن الآنسة سكوديرى أسهبت في وصف الغراميات في قصتها « أرطمين ، أو قورش العظيم » (١٦٤٩ — ١٦٥٣) ، كذلك زاوجت مدام دلافيت بين الحب والموت في قصتها « أميرة كليف » (١٦٧٨) ، وأدخل راسين هذا الموضوع في مسرحيته « فيدر » (١٦٧٧) ، وهى قمة العصر الكلاسيكى ، ونحن نذكر كيف ورث روسو الروايات الغرامية القديمة عن أمه ، وقرأها مع أبيه . أما جبال الألب فان البرشت فون هالركان قد تغنى بجلالها (١٧٢٩) ، كذلك تغنى جيمس طومسن بجبال الفصول ورهبها (١٧٢٦ — ١٧٣٠) . ولا بد أن جان — جاك قرأ قصة بريفوست « مانون لسكو » (١٧٣١) ، وأحاط علما برواية رتشر دسن « كلاريسا » في ترجمة بريفوست (١٧٤٧ — ١٧٤٨) (لأنه كان يقرأ الإنجليزية بصعوبة) . ومن قصة الإغواء تلك التى طالت إلى ألفى صفحة (ولم تكتمل بعد) إقتبس شكل الرسائل فى الرواية لصلاحيته للتحليل النفسى ، وكما دبر رتشر دسن لكلاريسا نجية تدعى الآنسة هاو ، كذلك دبر روسو لحولى نجية هى ابنة عمها كليز . ولاحظ روسو فى غيظ أن ديدرو نشر تقریظا حماسيا لرتشر دسن (١٧٦١) عقب نشر جولى ، فحجب بذلك سناء قصته جولى .

ولا تقل رواية جولى عن كلاريسا أصالة ومآخذ ، وهى تسمو عنها كثيرا فى أسلوبها والروايتان غنيتان فى شطحات الخيال مثقلتان بالمواعظ . ولكن فرنسا ، التى تبرز العالم أسلوبا ، لم تر قط اللغة الفرنسية تتخذ مثل هذا اللون ، والحرارة ، والنعومة ، والإيقاع ، فروسو لم يكن مجرد مبشر

بالوجدان ، إنما كان مملكه ، فكل ما يمسه مشرب بالحساسية والعاطفة . وقد نبتم لنشواته ولكننا نجد أن ناره تدفئنا . وقد ننكر الخطب المقحمة ونمر بها مرور الكرام ، ولكننا نمضى فى القراءة ، وبين الحين والحين تتجدد حياة القصة بمشهد شعر به المؤلف شعورا حادا . كان فولتير يفكر بالآراء ويكتب بالأبجرامات ، أما روسو فكان يبصر بالصور ويؤلف بالأحاسيس . ولم تكن عباراته ووقفاته بريئة من الصنعة ، فقد اعترف بأنه كان يقلبها وهو فى فراشه حين تقصى النوم عن جفنيه عاطفة الفنان المشبوبة^(٧٠) . يقول كانط « لأبد من أن أقرأ روسو إلى أن يكف جمال عبارته عن فتني ، وعندها فقط أستطيع أن أفحصه فى روية وتعقل^(٧١) » .

ولقيت جولى النجاح فى أعين الجميع إلا الفلاسفة . فوصفها جريم بأنها تقليد هزيل لككلاريسا ، وتنبأ بأن النسيان سيطويها سريعا^(٧٢) . وقال فولتير وهو يهدر غضبا (٢١ يناير ١٧٦١) لا تردنى حديثا عن رواية جان - جاك من فضلك ، فلقد قرأتها لشدة أسفى ، ولشدة أسفه . لو كان لدى من الوقت ما يتسع لأبداء رأيى فى هذا الكتاب السخيف^(٧٣) . وبعد شهر أفصح عن رأيه فى كتابه « رسائل حول هلويز الجديدة » الذى نشر بأسم مستعار . فنبه إلى الأخطاء اللغوية ، ولم يبد منه أى إشارة تدل على تقديره لوصف روسر للطبيعة - وأن كان سيقلد جان - جاك بعد حين بتسلفه ربوة ليتعبد للشمس المشرقة . وتبينت باريس قلم فولتير ، وحكمت بأن « الشيخ » عضته الغيرة بأنباها .

وإذا ضربنا صفحا عن هذه الوخزات ، فإن روسو إتهج بالاستقبال الذى لقيه أول عمل مطول له . يقول ميشليه « لم يعهد فى تاريخ الأدب كله نجاح عظيم كهذا^(٧٤) . » وظهرت الطبعة تلو الطبعة ، ولكن المطبوع كان أقل كثيرا من الطلب ووقف الجمهور فى طوابير أمام المكتبات لشراء الكتاب ، وكان القراء الملهوفون يدفعون أثنى عشر سوا فى الساعة ليستعروه ، وقراء النهار يؤجرونه لغيرهم يقرؤنه فى الليل^(٧٥) . وروى روسو فى أغتباط أن نبيلة طلبت مركبتها وقد تهبى للذهاب إلى مرقص فى الأوبرا ، وشرعت تقرأ

جولى خلال ذلك ، وشوقها القصة تشويقاً أغراها بالمضى فيها حتى الرابعة صباحاً بينما الخادمة والجياذ فى أنتظارها (٧٦) . وقد عزا أنتصاره إلى اللذة التى يجدها النساء فى قراءة قصص الغرام ، واكن كان هناك أيضاً نساء ملن حياتهن نخليلات ، وتقن إلى أن يكن زوجات ، وأن يكون لاطفالهن آباء . وتلقى روسو مئآت الخطابات فى مونتورنسى يشكره فيها أصحابها على كتابه ، وكثر عدد النساء اللاتى عرضن عليه حبهن حتى أنهى به خياله إلى أنه « ما من امرأة فى المجتمع الراقى لم أكن لألقى التوفيق فى الأتصال بها لو حاولته (٧٧) » .

وكان من الطريف أن يكشف إنسان عن سريرته كشفاً كاملاً كما فعل روسو خلال سان - برو وجزلى ، وليس هناك أكثر طرافة وإمتاعاً من نفس إنسان تتجرد أمام الناظرين ولو تجرداً جزئياً أو لاشعورياً . تقول مدام دستال « هنا مزقت كل أقنعة القلب (٧٨) » . وبدأ الآن سلطان الأدب الذاتى ، تلك السلسلة الطويلة الممتدة إلى زماننا ، من أفشاءات الذات ، من القلوب المحطمة فى صفحات مطبوعة ، من « النفوس الحمية » التى تسبح فى المأساه جهارا نهارا . وفشا بين الناس الإفصاح عن حرارة العاطفة ، والأعراب عن الأنفعال والشعور ، لا فى فرنسا وحدها بل فى إنجلترا وألمانيا أيضاً . وبدأ يتلاشى الأسلوب الكلاسيكى ، أسلوب ضبط النفس ، والنظام ، والعقل ، والشكل ، وأوشكت دولة « الفلاسفة » أن تدول . لقد أصبح القرن الثامن عشر بعد عام ١٧٦٠ ملكاً لروسو (٧٩) .

